

الفصل الثالث

معارك إسلامية غيرت خريطة العالم

(١)

معركة ملاذكرد .. فتحت الطريق إلى القسطنطينية^(١)

معركة غيرت وجه التاريخ :

تعد معركة «ملاذكرد» من أيام المسلمين الخالدة، مثلها مثل بدر، واليرموك، والقادسية، وحنطين، وعين جالوت، والزلاقة، وغيرها من المعارك الكبرى التي غيرت وجه التاريخ، وأثرت في مسيرته. وكان انتصار المسلمين في ملاذكرد نقطة فاصلة؛ حيث قضت على سيطرة دولة الروم على أكثر مناطق آسيا الصغرى وأضعفت قوتها، ولم تعد كما كانت من قبل شوكة في حلق المسلمين، حتى سقطت في النهاية على يد السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما أنها مهدت للحروب الصليبية بعد ازدياد قوة السلاجقة المسلمين وعجز دولة الروم عن الوقوف في وجه الدولة الفتية، وترتب على ذلك أن الغرب الأوربي لم يعد يعتمد عليها في حراسة الباب الشرقي لأوروبا ضد هجمات المسلمين، وبدأ يفكر هو في الغزو بنفسه، وأمر ذلك عن الحملة الصليبية الأولى.

ألب أرسلان:

يقول الكاتب الإسلامي أحمد تمام في دراسة له بموقع إسلام أون لاين : تولى ألب أرسلان حكم دولة السلاجقة سنة (٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م) خلفاً لعمه طغرل بك الذي أسس الدولة ومد سلطانها تحت بصره حتى غدت أكبر قوة في العالم الإسلامي، وقضى-

(١) الكاتب الإسلامي أحمد تمام في دراسة له بموقع إسلام أون لاين وانظر / جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة ٢٢ - عرض / ربيع سكر - ٤ أغسطس ٢٠١٣.

ألب أرسلان السنوات الأولى من حكمه في المحافظة على ممتلكات دولته وتوسيع رقعتها، وتأمين حدودها من غارات الروم.

ثم تطلع إلى ضم المناطق المسيحية المجاورة لدولته؛ فاتجه صوب الغرب لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الإغارة على إقليم أذربيجان حتى صاروا مصدر إزعاج وقلق لسكانه، وهو ما دفع بالسلطان السلجوقي إلى ضرورة كبح جماح هؤلاء الغزاة. وأزعج ذلك إمبراطور الروم رومانوس ديوجينيس، وأدرك أن التوسع السلجوقي لا يقف عند هذا الحد، وأن خطره سيهدد بلاده، فعزم على تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده بالإغارة على بلاد الشام الشمالية، فهاجم مدينة «منبج» ونهبها وقتل أهلها، غير أن ذلك لم يكن كافياً لدفع خطر السلاجقة على بلاده، فأعد جيشاً كبيراً لضرب السلاجقة، وتحجيم قوتها وإضعافها.

شور القوة:

جهّز الإمبراطور البيزنطي رومانوس جيشاً ضخماً يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم، وتحرك بهم من القسطنطينية عاصمة دولته، عملاً بنفسه بنصر حاسم يقضي على خطر السلاجقة، فقد أطمعته قواته الغفيرة وعتاده الكثيف بأن النصر آتٍ لا ريب فيه، واتجه إلى ملاذكرد حيث يعسكر الجيش السلجوقي.

أدرك ألب أرسلان حرج موقفه؛ فهو أمام جيش بالغ الضخامة كثير العتاد، في حين أن قواته لا تتجاوز أربعين ألفاً، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم، ونجح في تحقيق نصر خاطف يحقق له التفاوض العادل مع إمبراطور الروم؛ لأنه كان يدرك صعوبة أن يدخل معركة ضد جيش الروم؛ فقواته الصغيرة لا قبل لها بمواجهة غير مضمونة العواقب، فأرسل إلى الإمبراطور مبعوثاً من قبله ليعرض عليه الصلح والهدنة؛ فأساء الإمبراطور استقبال المبعوث ورفض عرض السلطان؛ وأشاح بوجهه في غطرسة وكبرياء مطمئناً من الفوز والظفر، ولم ينتظر سماع كلام مبعوث السلطان، وطالبه أن يبلغه بأن الصلح لن يتم إلا في مدينة الري عاصمة السلاجقة.

الاستعداد للقاء:

أيقن السلطان الأَمْر من القتال بعد أن فشل الصلح والمهادنة في دفع شيخ الحرب؛ فعمد إلى جنوده يشعل في نفوسهم روح الجهاد وحب الاستشهاد، وأوقد في قلوبهم جذوة الصبر والثبات، ووقف فقيه السلطان وأمامه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري يقول للسلطان مقوياً من عزمه: إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال، في الساعة التي يكون الخطباء على المنابر، فإتهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

وحين دانت ساعة اللقاء في (آخر ذي القعدة ٤٦٣ هـ / أغسطس ١٠٧١ م) صلى بهم الإمام أبو نصر البخاري، وبكى السلطان، وبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، ولبس البياض وتمنط، وقال: إن قتلت فهذا كفي.

ساعة اللقاء في ملاذكرد:

أحسن السلطان ألب أرسلان خطة المعركة، وأوقد الحماسة والحمية في نفوس جنوده، حتى إذا بدأت المعركة أقدموا كالأسود الضواري تفتك بيا يقبله، وهاجوا أعداءهم في جراءة وشجاعة، وأمعنوا فيهم قتلاً وتجرىحاً، وما هي إلا ساعة من نهار حتى تحقق النصر، وانقشع غبار المعركة عن جثث الروم تملأ ساحة القتال.

ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة، وسبق إلى معسكر السلطان ألب أرسلان الذي قال له: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرني؟ فقال: أفعل القبيح. فقال له السلطان: فما تظن أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما أن تشهر بي في بلاد الشام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي نائياً عنك. فقال السلطان: ما عزمت على غير هذا.

إطلاق سراح الإمبراطور البيزنطي:

أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع فدية كبيرة قدرها مليون ونصف دينار، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم، وأن تعقد معاهدة صلح مدتها خمسون عاماً، يلتزم الروم خلالها بدفع الجزية السنوية، وأن يعترف الروم

بسيطرة السلاجقة على المناطق التي فتحوها من بلادهم، وأن يتعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات السلاجقة.

ثم أعاد السلطان غريمه وأسيظه الإمبراطور البيزنطي إلى بلاده، وخلع عليه خلعة جليلة، وخصص له سرادقًا كبيرًا، وأعطاه قدرًا كبيرًا من المال لينفق منه في سفره، ثم أفرج عن عدد من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عددًا من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالمًا.

ولم تكد تصل أخبار الهزيمة إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه «اسمه من سجلات الملك»، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك، وعُيِّن ميخائيل السابع إمبراطورًا؛ فألقى القبض على رومانوس الرابع الإمبراطور السابق، وسمل عينيه.

نتائج معركة ملاذكرد:

بعد انتصار المسلمين في هذه المعركة تغيرت صورة الحياة والحضارة في هذه المنطقة؛ فاصطبغت بالصبغة الإسلامية بعد انحسار النفوذ البيزنطي تدريجيًا عن هذه المنطقة، ودخول سكانها في الإسلام، والتزامهم به في حياتهم وسلوكهم.

وواصل الأتراك السلاجقة غزوهم لمناطق أخرى بعد ملاذكرد، حتى توغلوا في قلب آسيا الصغرى، ففتحوا قونية وآق، ووصلوا إلى كوتاهية، وأسسوا فرعًا لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم، ظل حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان بعد انتصار السلاجقة في ملاذكرد، وأصبحت هذه المنطقة جزءًا من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا.

وكان من ثمار دخول هذه المنطقة في حوزة السلاجقة انتشار اللغتين العربية والفارسية، وهو ما كان له أثره في مظاهر الحضارة منذ ذلك الوقت حتى يومنا هذا، غير أن هزيمة الروم في موقعة ملاذكرد جعلتهم ينصرفون عن هذا الجزء من آسيا الصغرى، ثم عجزوا عن الاحتفاظ ببقية الأجزاء الأخرى أمام غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين، وقد توالى هذه الغزوات في القرون الثلاثة التالية لموقعة ملاذكرد، وانتهت بالإطاحة بدولة الروم، والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها، واتخاذها عاصمة للدولة العثمانية، وتسميتها بإسلامبول أو إستانبول. المصدر: موقع إسلام أون لاين.

ألب أرسلان.. القائد المسلم هازم الصليبيين :

كانت مملكة بيزنطة تتكون بشكل رئيسي- من مدينة القسطنطينية، ومن إقليم أرمينيا، ومن مناطق وحصون أخرى داخل أوروبا. وقد صمدت زمناً طويلاً في وجه الفتح الإسلامي، وخاضت حروباً صليبية ضد المسلمين، كانت في معظمها سجالاً. لكن الله هياً للمسلمين قائداً صادق الإيمان، تمكن من توحيد الإمارات الإسلامية التي حول دولة بيزنطة، واحتل معظم أرمينيا، وأصبح كالشوكة في حلق الدولة البيزنطية.

كان ذلك القائد هو البطل التركي المسلم «ألب أرسلان» رحمه الله.

كان البطل ألب أرسلان من الأتراك السلاجقة، وكان يعاونه في القيادة ابنه «ملكشاه»، فأخذوا يتقصان دولة بيزنطة من أطرافها، حتى سيطرا على أرمينية، وكشفا ظهر دولة الرها، وأخضعوا عمورية، حتى أصبحا على مقربة من قونية الواقعة على بحر إيجه في آسيا الصغرى. وفي أثناء ذلك كانت دولة بيزنطة تتحضر لاستعادة أرمينيا وكل ما فقدته من أرجائها، وقد انتهت الفرصة حين توفي الإمبراطور البيزنطي قسطنطين العاشر، فتولت الملك بعده زوجته الإمبراطورة إيدوسيا وصية على ولدها الصغير ميخائيل السابع. ثم تزوجت الإمبراطورة البيزنطية القائد العام لقواتها رومانوس ديوجين، وكان فارساً مغواراً وبطلاً مقداماً. يفاخر الصليبيون بفتوته وبطولاته، فلما رأى نفسه المتصرف في ملك الدولة البيزنطية طفق يؤلف جيشاً من متعصي الصليبيين، ولم يزل يجمع الجيش، وينفق عليه الأموال الطائلة حتى بلغ جيشه مائة ألف مقاتل، كلهم متعطش لدماء المسلمين! إضافة إلى الحرس الجمهوري القوي الذي كان تدريبهم أعظم من غيرهم.

هذا بالإضافة إلى مرتزقة صليبيين من النورمان والفرنج والصقالبة والترك، المقيمين في جنوب روسيا والبشناق. فلما أصبح الجيش الصليبي تام التجهيز، توجه صوب أرمينيا بقيادة رومانوس نفسه زوج الإمبراطورة التي رفعته إلى رتبة إمبراطور. وكانت خطته أن يباغت أرمينية قبل أن يصل إليها ألب أرسلان، الذي كان في الجنوب يخمد الفتن. ولما بلغ البطل ألب أرسلان هجوم رومانوس في اتجاه حصن ملاذ كرد وحصن خلطاط، أسرع إلى أرمينيا ليواجه بجيشه الصغير تلك الجموع البيزنطية الهائلة بقيادة رومانوس ذلك الفارس الصليبي المتوثب. وحاول ألب أرسلان دعوة جيشه وجمع أكبر عدد منهم، لكنه وجد الوقت قصيراً، فلم يتمكن من جمع أكثر من خمسة عشر ألف جندي سار بهم - رحمه الله - ليواجه بهم مائة ألف مقاتل.

لكنه -رحمه الله- كان عظيم الأمل في الله، فجمع فرسانه وخطبهم خطبة قال فيها: «سأقاتل صابراً محتسباً، فإن انتصرنا فتلك نعمة من الله، وإن كتبت لي الشهادة فهذا كفني وحنوطي جاهزين، وأكملوا معركتكم تحت قيادة ابني ملكشاه». ثم توجه وجنوده إلى الميدان فوجد قطعة من جيش العدو تقدر بعشرة آلاف عند بلدة خلطاط يقودهم قائد روسي؛ فاصطدم جيش المسلمين بتلك الفئدة، فنصر الله المسلمين، وأسر القائد الروسي، وقُتل عدد كبير من عسكر الكفر وجمعت الغنائم، وأرسلت إلى الخليفة في بغداد، فكان فألاً مباركاً استبشر به المسلمون في مقدمة المعركة الحاسمة. فلما تقارب العسكران أرسل السلطان ألب أرسلان إلى القائد رومانوس يطلب منه الصلح والمهادنة، فرد الصليبي ردّاً قبيحاً حين كان جوابه (لا هدنة إلا بالري)، يعني أنه لن يقبل هدنة إلا بعد أن يدمر عاصمة السلاجقة، ويحتل كل ديار الإسلام؛ فانزعج السلطان المسلم، وركبه همٌّ شديد لعدم تكافؤ العدد. وهنا قال الإمام الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك الحنفي: «إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره، وأرجو أن يكون الله قد كتب لك بجيشك القليل شرف النصر، فسر إلى العدو الكافر يوم الجمعة بعد الزوال والأئمة على منابرهم يدعون لجيشك بالنصر، والله غالب على أمره.»

وتم ذلك عند ظهيرة يوم جمعة من صيف أربعائة وثلاث وستين للهجرة (٤٦٣هـ)، وبينما كان رومانوس ينزل بجيشه وادياً، انقض عليهم القائلون كإنه قارعة أو صاعقة بعد أن صلى ويكى؛ فبكى الناس لبكائه، ودعا الله فدعا الناس بدعائه، ثم ركب وقال للناس: «ليس عليكم الآن أمير، وكلكم أمير نفسه، من شاء أن ينصرف فليعد إلى أهله». وألقى القوس والنشاب وحمل السيف والدبوس معلناً أن الأمر التحام وليس رماية، فالتف الروم حول المسلمين، وكان المسلمون في الوسط.

فكانت فرصة وسط الغبار أن يقتل المسلمون عدوهم كيف يشاءون، ودارت الدائرة على العدو الكافر، فتناثر من قتلاهم ما لا يحصى، وجيء بالأسرى وإذا مقاتل صغير الجثة يسوق أمامه قائد الأعداء رومانوس.

وتذكر ألب أرسلان أنه مزح مع ذلك العسكري الصغير يوماً، فقال له: «وما يدريك أن تُحضر إلينا ملك الروم؟ وحقق الله مزحه، ووقف رومانوس صاغراً بين يدي ألب أرسلان فنصره. القائد المسلم ثلاث مقارع، وقال له: دعوناك إلى الهدنة فأبيت، فأين الهدنة التي في الري؟ ثم قال له: ما تظن أي فاعل بك؟ فقال: كل سوء.

لكن القائد المسلم -رحمه الله- قبل فدية مقدارها مليون دينار، واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين؛ فقبل رومانوس ووقع بذلك، وعندئذ ناوله القائد المسلم عشرة آلاف دينار وأطلق معه حاشيته فوصل إلى بيزنطة مهزوماً، وهناك وجد أن الملك الصغير قد بلغ السن فتريع على العرش، فأظهر رومانوس ابتهاجاً بابن زوجته وأخبره أنه وقع على فدية بمليون دينار، فجمع الملك الجديد ما عنده وإذا هو ثلاثمائة ألف دينار فأرسلها رومانوس إلى ألب أرسلان، وحلف له أنه لا يملك غيرها! فقبلها -رحمه الله- وسامح بالباقي.

لقد حصلت هذه المعركة قبل الحرب الصليبية بحوالي عشرين عاماً، فقد مات ألب أرسلان بعد ذلك بعام، وتولى الأمر بعده ابنه ملكشاه.

ولكن ظل العرب على الرغم من معركة ملاذكرد التي يسميها الأجانب «منازي كرت»، ظل العرب إمارات متفرقة يحكم كل واحدة منها أتاك أو أمير إلى أن أقبلت حشود الصليبيين، فدخلوا ديار الإسلام ودمروا البلاد وقتلوا العلماء، وظل الحال كذلك مدة خمسين عاماً، حين هتف بالمسلمين هاتف الإسلام؛ فأيقظهم لتكون الضحية الأولى إماره الرها التي أسقطها عماد الدين زنكي رحمه الله.

إن تاريخ المسلمين ظل على الزمن عجيبيًا؛ لأن الكثرة والقلّة لم تكن في حساب المسلمين، إنما كانت القلة دوامًا منتصرة على الكثرة الكافرة؛ لكن المسلمين كانوا يُهزمون بتفرقهم وشتات أمرهم وأهواء زعمائهم، فإذا سخر الله لهم من يلمّ شعثهم ويجمع شملهم، عاد النصر وتحقق فيهم قول الله جل جلاله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وديار المسلمين في أيامنا هذه تتقاسمها فتن؛ تترك الحليم حيران، ولن يكون لها فرج إلا إذا أبرم الله لها أمر رشدها تحت راية التوحيد، وكلمة التوحيد، وتتم عندئذ كلمة ربك صدقًا وعدلًا، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. رحم الله الأمير المسلم ألب أرسلان، وجزاه عن جهاده المحتسب خير الجزاء.

(٢)

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية (١)

بشارة الرسول ﷺ :

في ٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ = ٢٩ من مايو ١٤٥٣م فتح العثمانيون بقيادة السلطان "محمد الفاتح" مدينة القسطنطينية بعد أن تعددت المحاولات لفتحها منذ عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه. وقد ظلت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ألفاً ومائة وخمسة وعشرين عاماً إلى أن سقطت في أيدي العثمانيين، وكان لسقوطها دوي هائل في أوروبا.

وكان فتح القسطنطينية تحقيقاً لبشارة رسول الله ﷺ، الذي قال في الحديث الشريف: "لتنفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش". وقد نال شرف تلك البشارة السلطان العثماني محمد الثاني بن مراد الثاني العثماني، الملقب بمحمد الفاتح.. وفي هذه الحلقة نتعرف على شخصية الفاتح، والمحاولات التي سبقت فتحها في عصور الخلافة المختلفة وكيف انتصر السلطان الفاتح وفتح القسطنطينية.

السلطان الغازي محمد الفاتح (٨٥٥-٨٨٦هـ) :

يحتل السلطان محمد الفاتح (محمد الثاني) عند أغلب المسلمين الشهرة الأولى في الدولة العثمانية، وذلك لعكوف مؤرخي أوروبا على تشويه تاريخ الدولة العثمانية، وللأسف الشديد تأثر كثير من المسلمين بهم حتى باتوا لا يعرفون عن إيجابياتها شيئاً غير فتح القسطنطينية، ولا يعرفون من حكامها إلا محمد الفاتح.

ومن الجدير بالذكر أنه برغم إيجابياته الكبيرة فهناك حكام آخرون بلغت في عهدهم الدولة العثمانية أوجهاً أكثر بكثير من عهد محمد الفاتح، ولكن لا ينكر أحد أن عهد محمد الفاتح -الذي تولى الحكم وعمره ٢٢ عاماً- من ألع صفحات تاريخ العثمانيين

(١) المصدر: جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة "٢٣" - عرض / ربيع سكر - ٥

أغسطس ٢٠١٣

بالكامل، ويكفيه شهادة رسول الله عنه أنه قال: "لتمتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

فتح القسطنطينية:

حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل العهد العثماني عدة مرات يحدوهم في ذلك حديث الرسول:

عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ يكتب إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً: أفسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ "مدينة هرقل تفتح أولاً"، يعني قسطنطينية.

لذلك أعد السلطان محمد الفاتح العدة لفتحها فبدأ ببناء قلعة على البر الأوربي تشرف على مضيق البوسفور، وتقابلها على البر الآسيوي القلعة التي بناها السلطان بايزيد الأول وبذلك يتحكم في مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية.

وشعر إمبراطور القسطنطينية بعزم السلطان على فتحها فعرض عليه دفع الجزية فرفض السلطان، وقبل أن نتعرض لأحداث الفتح تلقى نظرة على تحصين مدينة القسطنطينية الذي جعل منها مدينة صعبة المثال.

أولاً: كما ترى المانع المائي المتمثل في بحر مرمرية، وحتى مدخل القرن الذهبي عليه سلسلة عظيمة لمنع أو السماح بدخول أي سفينة.

ثانياً: الأسوار التي تحيط بالمدينة من جميع الجهات حتى من جهة البحر، ومن جهة البر توجد الأسوار العظيمة التي يصعب اختراقها.

ثالثاً: الحصن الموجود عند مدخل القرن الذهبي لمقاومة أي عدو.

نعود مرة أخرى لسير الأحداث، فعندما رفض السلطان محمد الثاني أن يدفع له إمبراطور بيزنطة الجزية في مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية، استنجد إمبراطور بيزنطة بنصارى أوربا، فأرسلت له جنوه (وهي إحدى الإمارات الأوربية في ذلك الوقت) ٣٠ سفينة حربية وجاءت في الوقت الذي يحاصر فيه العثمانيون القسطنطينية من جميع

الجهات، فاصطدمت السفن بالأسطول العثماني واستطاع الجنويون التسلل إلى القرن الذهبي، وحينما حاول العثمانيون اللحاق بهم أغلقت السلسلة في وجوههم بعد أن دخل الجنويون القرن الذهبي.

كان عدد الجنود العثمانيين الذين يحاصرون المدينة من الجهة البرية قرابة ٢٥٠.٠٠٠ جندي، أما من الناحية البحرية فكان هناك قرابة ١٨٠ سفينة بحرية.

وجمع محمد الفاتح قواده وقال لهم:

إذا تم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزته من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشاد به هذا الحديث من التقدير، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذي سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرقًا، ويجب على كل جندي أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافي هذه التعاليم، وليجتنبوا الكنائس والمعابد، ولا يمسوها بأذى، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعجزة الذين لا يقاتلون.

وأراد العثمانيون الدخول إلى القرن الذهبي حيث توجد بعض الأسوار الواهية فاتبعوا طريقة لم تخطر ببال أحد، وهي أنهم أعدوا ألواحًا خشبية تصل بين البحر في القرن الذهبي والبحر عند مدخل مضيق البوسفور، وألقوا على هذه الألواح الخشبية الدهون والشحوم، وأخذوا يزلقون السفن الحربية على الألواح الخشبية من مضيق البوسفور إلى القرن الذهبي، ثم أخذت المدافع العثمانية تلك أسوار القسطنطينية من جميع الجهات، فلم تستطع المدينة أن تصمد أمامهم، فدخلوها دخول الأبطال المنتصرين في فجر يوم ١٥ من جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ، وقتل إمبراطورها في المعركة، وسيطر العثمانيون على المدينة سيطرة كاملة، وأمر السلطان محمد الفاتح أن يؤذن في كنيسة آيا صوفيا إيدانًا بتحويلها إلى مسجد.

ومما هو جدير بالذكر أن كنيسة آيا صوفيا هذه هي مقر الأرثوذكس العالمي، التي تضاهي الفاتيكان مقر الكاثوليك العالمي، كما أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى إسلام بول (إستانبول) أي مدينة الإسلام واتخذت عاصمة للدولة العثمانية وظلت العاصمة حتى إلغاء الخلافة، وبذلك سقطت تمامًا الدولة البيزنطية العدو الأول للمسلمين على مدى أكثر من ٨ قرون، وأمن أهل المدينة النصارى على حرية دينهم وممارسة شعائرهم،

واشترى نصف كنائس المدينة وحوّلها إلى مساجد، وترك النصف الآخر من الكنائس للنصارى لممارسة شعائرتهم.

وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عثر على قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي استشهد أثناء محاصرة القسطنطينية في عهد يزيد بن معاوية، فبعد فتح القسطنطينية بنى مسجدًا في هذا الموقع، وغدا تسلم السلاطين مقاليد الحكم في هذا المسجد عرفًا متبعًا حيث يتسلم السلطان الجديد سيف عثمان أرطغرل مؤسس الدولة.

الفتوحات في أوربا:

بعد أن تم فتح القسطنطينية وترميم أسوارها التي هدمت أثناء الفتح، تقدم السلطان محمد الفاتح ليستكمل فتوحاته.

تحويل ولاية الصرب إلى ولاية عثمانية:

كما نعلم أن السلاطين السابقين كانوا يعطون الاستقلال لإمارة الصرب في مقابل جزية تدفع كل عام، ولكن كثيرًا ما كان الصرب يستغلون أي ظروف سيئة تمر بها الدولة العثمانية، ويمتنعون عن دفع الجزية، فأراد السلطان محمد الفاتح أن يعزز سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الصرب، فسار إليها ودخلها عام ٨٥٨هـ ولكنه لم يتمكن من فتح عاصمتها بلغراد، وذلك لأن ملك المجر هونياد استمات في الدفاع عنها، ولكن بهذا الفتح فقدت الصرب استقلالها وتحوّلت إلى ولاية عثمانية، ولم يبق خارج سيطرة العثمانيين إلا بلغراد التي تركها العثمانيون، ونجحوا في إصابة ملك المجر الذي مات متأثرًا بجراحه بعد مغادرة العثمانيين بعشرين يومًا.

فتح بلاد مورة (جنوب اليونان):

تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح بلاد مورة عام ٨٦٣هـ وتمكن أيضًا من فتح معظم الجزر في بحر إيجه.

فتح بلاد الأفلاق (جزء من رومانيا الحالية):

وصل للسلطان محمد الفاتح تعدى أمير الأفلاق على بعض التجار العثمانيين النازلين ببلاده، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشًا لمحاربتة، فطلب الأمير الصلح مقابل جزية

سنوية قدرها ١٠٠.٠٠٠ درهم ولكن اتضح أن أمير الأفلاق لم يطلب ذلك إلا ليتحد مع أمير المجر لمحاربة العثمانيين، فبعث إليه السلطان برسولين ليستفسرا عن ذلك، فقتل الرسولين.

ولم يكف بذلك بل أغار على بلاد البلغار التابعة للدولة العثمانية، فأعمل فيها القتل والسلب وعاد إلى بلاده ومعه ٢٥.٠٠٠ أسير، فأرسل له السلطان يدعوه إلى إعادة الأسرى والطاعة للدولة العثمانية، فأمر الرسل برفع عثائمهم لتعظيمه، فأبى رسل السلطان فأمر الأمير بشييت العثائم على رؤسهم بمسامير من حديد، وعلم السلطان بما حدث فجمع ١٥٠.٠٠٠ مقاتل وسار قاصداً بلاد الأفلاق، فهزم أميرها الذي فر إلى بلاد المجر بعد أن مثل بالأسرى المسلمين شر تمثيل، وامتلأت ضواحي بخارست عاصمة الأفلاق بجثثهم، وبذلك أصبحت الأفلاق ولاية عثمانية.

فتح بلاد البوسنة ودخول أهلها في دين الله أفواجا:

امتنع أمير البوسنة عن دفع الجزية، فجهز السلطان محمد الفاتح جيشاً لفتح البوسنة، فسار إليها وفتحها عام ٨٦٦هـ وحاول ملك المجر ماتياس نزع البوسنة من أيدي العثمانيين، ولكنه فشل وما إن تم فتح البوسنة وجعلها ولاية عثمانية إلا ودخل أهلها وأشرافها في دين الله أفواجا، وانضم للجيش من أهلها ٣٠.٠٠٠ شاب.

إسكندر بك يعود إلى الظهور:

دعا البابا لحرب صليبية على العثمانيين بعد أن تمكنوا من فتح الكثير من بلاد أوروبا وسقوط القسطنطينية، غير أن البابا قدم مات ولم تقم الحرب الصليبية، وكان إسكندر بك عن شجعهم البابا على حرب العثمانيين، فلم ينتظر قيام حرب صليبية وقام بشن هجوم على العثمانيين، وكانت الحروب بين الطرفين سجاً حتى توفي إسكندر بك سنة ٨٧١هـ، واستطاع بعدها السلطان محمد الفاتح أن يُخضع الأرناؤوط (ألبانيا) لسلطة الدولة العثمانية.

سيطرة العثمانيين على القرم والفشل في فتح بلاد البغدان:

عرض السلطان في عام ٨٧٨هـ على أمير البغدان أصطقان الرابع دفع الجزية، فرفض فسار إليه الجيش العثماني وانتصر عليه لكنه لم يستطع فتح الإقليم، ففكر السلطان في

دخول شبه جزيرة القرم والاستفادة من فرسانها في فتح البغدان، واستطاع السلطان أن يطرد الجنوبيين من مواقع كانوا يحتلونها في شبه جزيرة القرم، واتفق السلطان مع سكان شبه جزيرة القرم من التتر المسلمين على دفع خراج سنوي، ثم اتجه الأسطول العثماني من شبه جزيرة القرم إلى مصب نهر الدانوب، فدخل بلاد البغدان وفر من أمامه الجيش البغداني، ليستدرجوه إلى غابة كثيفة ثم انقضوا عليه وهزموه عام ٨٨١هـ؛ ولذلك اشتهر أصطغان الرابع بمحاربة العثمانيين وسماه البابا بشجاع النصرانية وحامي الديانة المسيحية.

محاربة البنادقة:

أغار السلطان على بلاد البنادقة عام ٨٨٢هـ واستطاع فتح بلاد كرواتيا ودلاسيا (الجبل الأسود وجزء من ألبانيا وجزء من كرواتيا)، ثم فتح مدينة اشقودرة فلجأ البنادقة إلى إبرام الصلح معه عام ٨٨٧هـ.

الفتش في فتح ترانسلفانيا (الجزء الغربي من رومانيا) :

وجهت الجيوش لفتح إقليم ترانسلفانيا الذي كان يتبع المجر في ذلك الوقت، فانهزم الجيش العثماني وقتل الكثير من العثمانيين، وارتكب ملك المجر فيهم جرائم وحشية، وقتل جميع الأسرى ونصبت موائد الجيش على جثث المسلمين.

محاولة فتح إيطاليا:

لم يغيب عن ذهن السلطان محمد فتح إيطاليا ورفع لواء الإسلام على رومية بعد أن فتح القسطنطينية، يحركه في ذلك يقينه بالله وبشارة الرسول ﷺ بفتح رومية، حتى إنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس (الفاتيكان).

ورأى أن يمهد لذلك بأن يفتح جزيرة رودس التي يسيطر عليها فرسان القديس يوحنا، ولكن الأسطول العثماني فشل في فتحها وأبرم صلحاً معهم عام ٨٨٥هـ ثم عاد فاتجه لفتح إيطاليا، فنزل الجيش العثماني بسواحل إيطاليا واستطاع فتح مدينة أوترانت عام ٨٨٥هـ، وفي العام الذي تلاه اشتغل بإعداد حملة عظيمة لإتمام فتح إيطاليا، ولكن واقته المنية وعندما توفي انصرف العثمانيون عن هذه الجهة، وأخل خلفه بايزيد الذي اشتهر بميله إلى السلم مدينة أوترانت من الجيش العثماني.

الفتوحات والتوسع في الأناضول:

فتح السلطان إمارة طرابزون آخر إمارة صليبية في الأناضول، وبذلك طهر الأناضول تمامًا من الصليبيين، وضم إليه إمارة القرمان نهائيًا.

هاجم أوزون جيش من حلفاء تيمورلنك شرقي الأناضول، فأرسل السلطان إليهم جيشًا هزمهم عام ٨٧٤هـ.

وتوفي السلطان محمد في يوم ٤ من ربيع الأول عام ٨٨٦هـ، الذي استحق لقب الفاتح لجهاده الكبير في سبيل الله وفتحه الكثير من البلاد، وهو يُعدُّ جيشًا كبيرًا لفتح إيطاليا، فجزاه الله خيرًا عن المسلمين جميعًا.

(٣)

معركة الزلاقة .. كسبها الإيمان وضيع ثمارها الخلف^(١)

درس لا ينسى :

التاريخ ذاكرة الشعوب، وحاستها المنبهة، ومن ثمَّ فهو أهم عوامل تحريك هذه الشعوب نحو غاياتها، والإدراك الواعي بالتاريخ ليس عملية سهلة أو بسيطة، لكنه أفسى من آلام الميلاذ نفسها إن لم يشكل هذا الإدراك وهذا الوعي جديدًا بكل ما يصاحبه من الآم ومن تمخضات. وربما كان هذا هو السبب في سعي القوى الاستعمارية والعنصرية عامة إلى التعتيم على تاريخ الأمة العربية الإسلامية، وإلى العمل على طمس هذا التاريخ وتزييفه، وليست غريبة تلك الأصوات الناعقة بقطع صلتنا بالماضي، بل ووصول بعضها إلى القول بالقاء تراثنا في البحر ثم تضيي بعد ذلك. □ أقول: إن هذه الأصوات -بنيّة أو بغير نية- إنما تخدم مصالح أعداء هذه الأمة حين توصي بإهمالها لتراثها، ومن ثمَّ لتاريخها. وأهمية التاريخ الحقيقية تكمن في دراسته واستيعابه؛ لكي تتمكن -على ضوء الإفادة من تجاربه- من تصحيح الحاضر، والاستعداد للمستقبل.

ومعركة الزلاقة التي وقعت في شهر رجب من عام ٤٧٩هـ الموافق أكتوبر من عام ١٠٨٦م هي درس التاريخ الذي لا ينسى، وإنما يدق بقوة على أفتدة وعقول أمتنا العربية الإسلامية لكي ينبهها إلى أن النصر والغلبة ليسا بحاجة إلى كثرة العدد والعدة فحسب، وإنما يجب أن يسبقهما الإيمان الكامل بالمبدأ، والاستعداد للتضحية من أجله. ومن ثمَّ إذا ما توافر عنصر الإيمان واليقين والأخذ بالأسباب، فإن نصر الله قادم لا محالة.. بل هو رهن المؤمنين، فهو القائل عز وجل: {وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧].

والزلاقة بطحاء قرب مدينة قرطبة وقعت عندها معركة طاحنة بين المسلمين والاسبان سنة ٤٧٩هـ انتهت بنصر بين المسلمين. وسبب تلك المعركة تطاول ملك قشتالة الاسباني على سلطان المسلمين في الأندلس "المعتمد بن عباد" وتهديده إياه وسخرته منه، □ وقرر

(١) موقع قصة الإسلام نقلًا عن مجلة القسطاط التاريخية. وراجع : جريدة الوسط الكويتية - معارك

إسلامية خالدة - الحلقة " ٢٤ " - عرض / ربيع سكر - ٦ أغسطس ٢٠١٣

”ابن عباد“ أن يستعين بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين سلطان المغرب، وفعلاً فقد عبر البحر ابن تاشفين منجداً لابن عباد وتلاقى معه ، واستعددا بقواتهما خير استعداد للملاقاة ملك قشتالة. والتقى جيش المسلمين يقوده (ابن عباد وابن تاشفين) بجيش الإسبان، وكانت معركة طاحنة، صدق فيها المسلمون الحملة على أعداء الله حتى أخرجوهم من محلتهم ، فولوا ظهورهم وأعطوا أعناقهم والسيوف تصفعهم والرماح تطعنهم ، وهرب ملك الإسبان تاركاً جنوده وقواده يلاقون مصارعهم ، وأعز الله دينه، وأعلى كلمته، وعادت للمسلمين عزتهم ولو إلى حين بعد معركة الزلاقة هذه.

ولنستعرض معاً أيها القارئ الكريم قصة تلك المعركة، وظروفها وتطوراتها والنتائج المترتبة عليها..

أحوال المسلمين قبل الزلاقة:

شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) قمة التقدم الحضاري والسياسي في بلاد الأندلس، وأضحى قرطبة عروس الغرب، وحكامها خلفاء بني أمية يتمتعون بمكانة عالية، سياسياً وعسكرياً وحضارياً، ولم يدر بخلد أحد أن هذا الصراع الذي تسمى عالياً على عهد المنصور بن أبي عامر كان يحتمل في طيلته عوامل هدمه وفنائه، فإنا أن مات المنصور، ومن بعده ابنه عبد الملك، حتى ثار القرطبيون على عبد الرحمن بن المنصور، وبدأت سلسلة من الأحداث الدامية أدت في النهاية إلى تمزق هذه الدولة تمزقاً يؤلم الصدور..

وقامت في جوانبها خلافات وممالك وسلطنات لا حول لها ولا قوة، بل إن قواها قد وجهت ضد بعضها بعضاً حتى أنهكت القوى واضمحلت الأندلس كما يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان: ”الصرح الشامخ، الذي انهارت أسسه وتصدع بنيانه، وقد انتفضت أطرافها، وتناثرت أشلائها، وتعددت الرياسات في أنحاءها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة، لكن تفرق بينها، بل على العكس منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وحروب أهلية صغيرة تضطرم بينها“.

وفي كل ناحية من نواحي الأندلس، قامت دويلة أو مملكة هشة، اتخذ أصحابها ألقاب الخلافة ورسوم الممالك، دون أن يكون لهم من ذلك حقيقته أو معناه، وقال الشاعر واصفاً

هذه الحالة المؤسفة:

أسماء معتمد فيها ومعتمد
كاهنٌ يحكي انتفاخاً صورة الأسد
عما يزهدي في أرض أندلس
ألقابٌ مملكة في غير موضعها

وكان تمزق الأندلس على هذا الشكل المأساوي ضرب لكيان الدولة الإسلامية لم تفق منها أبداً، بل إنها كانت البداية الحقيقية لانحلال الدولة الإسلامية رغم ما اتبها في بعض الأحيان من صحوات وبقظة مدّت في عمرها هنا مئات الأعوام.

واكب هذا الضعف الأندلسي تولي الملك ألفونسو السادس عرش قشتالة، الذي عمل جهده للاستفادة من هذا التدهور الذي أحاط بالدولة الإسلامية هناك، فبدأ باستغلال الصراع الدائر بين هذه الممالك، وأخذ يضرب بعضها ببعض، ويفرض عليها الإتاوات والغرامات حتى يستنفد طاقتها، ومن ثمّ تسقط في يده كالثمرة الناضجة.

سقوط طليطلة:

مدينة طليطلة، من أهم المدن الأندلسية، تتوسط شبه الجزيرة تقريباً، وكانت عاصمة القوط قبل الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة، ومن هنا كانت أهميتها البالغة، وبالتالي أصبحت مطمئناً لآمال ألفونسو السادس، وخاصة أن حال المدينة كانت سيئة جداً على عهد ملوكها من الطوائف.. وهم أسرة ذي النون.

دبر ألفونسو خطته لغزو المدينة، وأرهب ملوك الطوائف الآخرين وتوعدهم إن قاموا بإنقاذها، وحاصرها حتى اضطرها إلى التسليم. وما يؤسف له وجود قوات ابن عباد ملك إشبيلية ضمن قوات الملك الإسباني، وضد المدينة التي حاولت الصمود أمام مصيرها المؤلم في خريف سنة ٤٧٧هـ / ١٠٨٥م.

وسقطت طليطلة بأيدي ألفونسو السادس، ونقل إليها عاصمة ملكه، واستتبع سقوطها استيلاء الأسبان على سائر أراضي مملكة طليطلة، ولقد كان أسوأ ما في مأساة طليطلة أن ملوك الطوائف المسلمين لم يهبوا لنجدها أو مساعدتها، بل على العكس، لقد وقفوا موقفاً خزيًا، فاغرين أفواههم جبنًا وغفلة وتفاهة. بل إن عددًا منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونسو السادس، طالبًا عونه، أو عارضًا له الخضوع.

وأطمع ذلك الملك ألفونسو السادس بياقي عمالك الطوائف، وانتشت أحلامه بالقضاء عليها الواحدة بعد الأخرى، وتجر عليهم، وعلا وطغى.. فقام بتقضى عهوده التي كان قد قطعها لأهل طليطلة، وحول مسجد طليطلة إلى كنيسة بقوة السلاح، وحطم المحراب ليقام الهيكل مكانه، وبدأ ألفونسو في تنفيذ خطته بالإيغال في إذلال الطوائف، وخاصة المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأشدهم بأساً، حيث أراد أن يمعن في إذلاله كأقوى أمراء الطوائف، فأرسل إليه رسالة يطلب فيها السماح لزوجته بالوضع في جامع قرطبة وفق تعليقات القسيسين، وقد أثار هذه الرسالة ابن عباد حتى قيل: إنه قد قتل رسل الملك القشتالي وصلبهم على جدران قرطبة؛ مما أثار غضب ألفونسو السادس وصمم على الانتقام، وبدأت جيوشه في انتساف الأرض في بساطة إشبيلية وفي الأراضي الإسلامية.

الاستنجد بالمرابطين:

تعالّت الأصوات في الأندلس تطالب بالارتفاع فوق الخلافات الشخصية، وتناسي المصالح الذاتية، والاستنجد بالمرابطين الذين نمت قوتهم في ذلك الوقت على الضفة الأخرى من البحر المتوسط. وقام أبو الوليد الباجي وغيره من فقهاء الأندلس بالدعوة إلى التوحد، وضرورة الاستعانة ياخوة الإسلام الأفارقة من المرابطين، ولقيت الدعوة صدى عند أمراء الأندلس بسبب ازدياد عنف ألفونسو، ورغم كل التحذيرات التي وجهت إلى المعتمد بن عباد، وتخوفه من طمع المرابطين في بلاد الأندلس، إلا أن النخوة الإسلامية قد استيقظت في نفسه، فأصر على الاستنجد بالمرابطين، وقال قولته التي سارت مثلاً في التاريخ: "لأن أكون راعي جمال في صحراء إفريقية خير من أن أكون راعي خنازير في بيداء قشتالة".

وتقول بعض الروايات إن ألفونسو قد وصل في بعض حملاته إلى الضفة الأخرى من الوادي الكبير لإشبيلية. وأرسل رسالة سخرية إلى المعتمد بن عباد يقول فيها: "لقد ألمّ بي ذبابكم بعد أن طال مقامي قبالتكم، واشتد الحر، فهلاً أتخفتي من قصرك بمروحة أروح بها عن نفسي، وأبعد الذباب عن وجهي؟". وردّ ابن عباد على الرسالة بقوله: "قرأت كتابك، وأدركت خيلاءك وإعجابك، وسأبعث إليك بمراوح من الجلود المطلية، تريح منك لا تروح عليك". ويقال إنه كان يقصد بذلك الجيوش المرابطية، ودعوتها إلى الأندلس.

عبور المرابطين:

بدأت الجيوش المرابطية العبور من سبتة إلى الجزيرة الخضراء، ثم عبر أميرهم يوسف بن تاشفين في يوم الخميس منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ/ يونيو ١٠٨٦م، ثم تحركت العساكر إلى إشبيلية، وعلى رأسهم ابن تاشفين، ونزل بظاهرها، وخرج المعتمد وجماعته من الفرسان لتلقيه، وتعانقا، ودعوا الله أن يجعل جهادهما خالصا لوجهه الكريم. واستقر الجيش أياما في إشبيلية للراحة، ثم اتجه إلى بطليوس في الوقت الذي تقاطرت فيه ملوك الطوائف بقواتهم وجيوشهم. وسار هذا الموكب من الجيش الإسلامي إلى موضع سهل من عمل بطليوس وأحوازها، ويسمى في المصادر الإسلامية بالزلاقة على مقربة من بطليوس.

معركة الزلاقة:

لم تكن أعين الملك القشتالي غافلة عن تحرك الجيوش الإسلامية؛ ولذلك رفع حصاره عن مدينة سرقسطة الإسلامية، وكتب أمراء النصرانية في باقي أنحاء إسبانيا وجنوبي فرنسا يدعوهم لمساعدته، وقدم إلى أحواز بطليوس في جيش كثيف، يقال بأنه حين نظر إليه همس: هؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء. واختلفت الآراء حول عدد الجيشين، لكنها اتفقت جميعها على تفوق ألفونسو السادس في عدد جيشه وعدته، وكانت كل الظروف في صالحه.

وجرت الاستعدادات في المعسكرين بكل أشكالها، وبالبحث على الحرب والصبر فيها، وقام الأساقفة والرهبان بدورهم، كما بذل الفقهاء والعباد كل جهودهم وحاول ألفونسو خديعة المسلمين، فكتب إليهم يوم الخميس يخبرهم أن تكون المعركة يوم الاثنين؛ لأن الجمعة هو يوم المسلمين، والسبت هو يوم اليهود، والأحد يوم النصارى.

وأدرك ابن عباد أن ذلك خدعة، وفعلاً جاءت الأخبار بالاستعداد الجاري في معسكر النصارى، فاتخذ المسلمون الحذر، ويات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات، خائفين من كيد العدو. وبعد مضي جزء من الليل انتبه الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، وكان في محلة ابن عباد، فرحاً مسروراً، يقول: إنه رأى النبي ﷺ، فبشره بالفتح والشهادة له في صبيحة غد، وتأهب ودعا، ودهن رأسه وتطيب.

فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ، زحف ألفونسو بجيشه على المسلمين، ودارت معركة حامية، ازداد وطيشها، وتحمل جنود الأندلس من المسلمين الصدمة الأولى، وأظهر ابنُ عباد بطولة رائعة، وجرح في المعركة، واحتل جيش المسلمين، واهتزت صفوفه، وكادت تحقيق به الهزيمة، وعندئذ دفع ابن تاشفين بجيوشه إلى أتون المعركة، ثم حمل بنفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القشتالي، فهاجمه بشدة، ثم أجه صوب مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يرغب في الاستشهاد، وقرع الطبول يدوي في الأفاق، قاتل المرابطون في صفوف مترامية ثابتة، مثل بقية أجنحة المعركة. ما أن حل الغروب حتى اضطرب الملك القشتالي -وقد أصيب في المعركة- إلى الانسحاب حفاظاً على حياته وحياة من بقي من جنده، وطورد الفارزون في كل مكان حتى دخل الظلام، فأمر ابنُ تاشفين بالكف. استمرت المعركة يوماً واحداً لا غير - وقد حطم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين، وأجزل لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه. وتُجمع المصادر الإسبانية على أن الملك القشتالي ألفونسو السادس قد نجا بأعجوبة في حوالي خمسمائة فارس فحسب، من مجموع جيوشه الجرارة التي كان سيهزم بها الجن والإنس والملائكة.

سرت أنباء النصر المبين إلى جميع أنحاء الأندلس والمغرب، وسرى البشرى بين الناس، وأصبح هذا اليوم مشهوداً من أيام الإسلام، لا على أرض شبه الجزيرة فحسب، وإنما على امتداد الأرض الإسلامية كلها، ونجح ذلك اليوم في أن يمد في عمر الإسلام والمسلمين على الأرض الإسبانية ما يقرب من أربعة قرون من الزمان.

نصر مهين... ونتائج أقل:

يلقى يوسف أشباح في كتابه "تاريخ الأندلس على عهد المرابطين والموحدين" على موقعة الزلاقة بقوله: إن يوسف بن تاشفين لو أراد استغلال انتصاره في موقعة الزلاقة، لربما كانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولُدُرس القرآن في جامعات موسكو، وبرلين، ولندن، وباريس. والحقيقة أن المؤرخين جميعاً يقفون حيارى أمام هذا الحدث التاريخي الهائل الذي وقع في سهل الزلاقة، ولم يتطور إلى أن تتقدم الجيوش الإسلامية لاسترداد طليطلة من أيدي النصاري، خاصة وأن الملك الإسباني كان قد قُعد زهرة جيشه في هذه المعركة، ولا يختلف أحد في الرأي بأن الطريق كان مفتوحاً تماماً ومهدداً لكي يقوم

المرابطون والأندلسيون بهذه الخطوة.

إن ما حدث فعلاً هو عودة المرابطين إلى إفريقية، وعودة أمراء الأندلس إلى الصراع فيما بينهم، وكان شيئاً لم يقع، وقد أعطى ذلك الفرصة مرة ثانية للملك ألفونسو السادس أن يستجمع قواه، ويضمّد جراحه، ويعمل على الانتقام من الأندلسيين، وكان حقه شديداً على المعتمد بن عباد، فعاد إلى مهاجمة بلاده، وركز غاراته على إشبيلية، وتمكن من الاستيلاء على حصن لبيط؛ مما اضطر ابن عباد إلى العودة مرة ثانية إلى الاستنجاد بالمرابطين.

وذهب المرابطون للمرة الثانية إلى الأندلس، لكنهم في هذه المرة لم يجدوا مساعدة من معظم أمراء الطوائف المسلمين، حيث تغلبت عليهم شهواتهم وأهواؤهم الشخصية، وخلافاتهم الضيقة؛ مما اضطر أمير المسلمين أن يستفتي الفقهاء في خلعهم، وضم بلاد الأندلس إلى طاعة المرابطين، والعودة مرة ثالثة إلى الجهاد ضد الأسبان.

دروس مستفادة من معركة الزلاقة :

- ليس من نافلة القول بأن الانقسام ضعف والوحدة قوة؛ فمالك الطوائف في الأندلس شربت المرارة والمذلة في تفرقها، وأحست بالعزة والنصر في اتحادها.
- ليس بالعدد والعُدَّة فقط تكتسب المعارك، وإنما بالإيمان بالهدف والإعداد له، والتنبيه للخصم، والارتفاع إلى مستوى الأحداث.
- قد يكون إحراز النصر شاقاً ومضنياً، لكن الأكثر عسراً وإجهاداً هو استغلال هذا النصر، وتطويره لصالح الإسلام والمسلمين. وهذا هو درس التاريخ.

(٤)

معركة حطين وفتح بيت المقدس

انتصاران عظيمان للناصر صلاح الدين على الصليبيين ^(١)

معركة فاصلة :

معركة حطين معركة فاصلة بين الصليبيين وقوات صلاح الدين المسلمة، وقعت في يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ الموافق ٤ يوليو ١١٨٧ م بالقرب من قرية المجاودة، بين الناصرة وطبرية انتصر فيها المسلمون، ووضع فيها الصليبيون أنفسهم في وضع غير مريح إستراتيجيا في داخل طوق من قوات صلاح الدين، أسفرت عن سقوط مملكة القدس وتحرير معظم الأراضي التي احتلها الصليبيون.

فبعد أن أقام صلاح الدين في الأقحوانة على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية مدة خمسة أيام، ارتحل عنها باتجاه الغرب للوصول إلى قرية الصنبرة الواقعة عند التلال المحيطة بالمنطقة القريبة من بحيرة طبرية .

وعلى الرغم من نيته الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة، إلا أنه أراد بتحريكه أن يشرهم ليدفعهم إلى ترك مراكزهم عند صفورية، والزحف إليه وقد نجح في ذلك؛ فقد أصدر الملك جاي لوزينان الأوامر إلى الجند بالمسير؛ فاتخذ الجيش الصليبي -الذي بلغ تعداد زهاء خمسين ألفاً- في الصباح الباكر من يوم الجمعة (٢٣ من ربيع الآخر = ٢ من يوليو) طريقه شرقاً نحو طبرية، يتقدمه ريموند الثالث؛ لأن الجيش يجتاز إمارته.

وقد واجه الجيش الصليبي المتقدم عدة مشكلات أثرت تأثيراً سلبياً على قدراته القتالية، منها:

- انحطاط روح أفراد المعنوية، بعد الانقسام في الرأي بين القادة؛ فساروا مكرهين بين مؤيد للزحف ومعارض له

(١) المصدر : المؤرخ الإسلامي الدكتور علي الصلابي ، راجع : جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة " ٢٥ " - عرض / ربيع سكر - ١٧ أغسطس ٢٠١٣

- اشتداد حرارة الجو اللافتحة في شهر تموز

- افتقارهم إلى الماء

- صعوبة الطريق الذي بلغ طوله ستة عشر ميلاً

- تعرضهم لهجمات المسلمين الخاطفة .

اكتشف الصليبيون في صباح يوم السبت (٢٤ من ربيع الآخر = ٣ من يوليو) أنهم محاصرون بعيداً عن الماء؛ فنزلوا مسرعين إلى قرون حطين، وهناك دارت معركة رهيبة انتصر فيها الجيش الإسلامي انتصاراً عظيماً، وهاجمت قوة صليبية بقيادة ريموند الثالث المسلمين في بداية القتال، في محاولة لاحتلال الممر المؤدّي إلى قرية حطين حيث بعض ينابيع الماء والآبار؛ فانفصلت عن باقي الجيش الذي كان يتبعها، وعندما وصل أفرادها إلى الممر وجدوا أنفسهم مُطوّقين من جانب المسلمين، فحاولوا شقّ طريق لهم عبر صفوف المسلمين، ولكن الرماة رموهم بالنبال؛ فلقى عدد كبير منهم مصرعهم على الفور، بينما وقع آخرون في الأسر.

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند الثالث مُطوّقاً من قبل المسلمين، كان قلب الجيش بقيادة الملك يستعد للقتال، وعندما بدأ الالتحام هجم فرسان الداوية والإسبانية بقوة؛ فقتلوا بعض المسلمين، وتسببوا في انسحاب البعض الآخر إلا أنهم لم يستثمروا انتصارهم الجزئي هذا؛ لأن المشاة قصرروا في مجاراة الفرسان؛ لأنهم كانوا مرهقين، وانسحبوا إلى تلة هي إحدى قرون حطين، ودُعِرَ الملك عندما رأى ذلك؛ فحاول أن يعيد الثقة إلى المشاة، ويردهم إلى مواقعهم، ولكنه فشل، ومع انسحاب المشاة انكشف قلب الجيش الذي تعرض لضربات المسلمين.

ريموند يحاول الهرب :

في ظل هذه الفوضى التي ضربت الجيش الصليبي حاول الملك أن ينصب خيمة تكون مركزاً لإعادة التجمع، ولاحظ ريموند الثالث ما آلت إليه الأوضاع العسكرية من التدهور؛ فأيقن قبل أن تنتهي المعركة أن النصر سيكون في صالح صلاح الدين؛ ولذا بذل كل ما عنده من ذكاء لينجو بنفسه من الموقعة؛ فحاول أن يتراجع لكنه أخفق، ثم علت

الصيحات بين صفوف الصليبيين: "من كان منكم يستطيع الهرب فليهرب؛ لأن المعركة ليست في جانبنا"، لكنَّ الهرب -حتى الهرب- كان مستحيلًا.

وكرز ريموند الثالث محاولته فك الطوق عن قواته، والانسحاب من المعركة عن طريق القيام بصدمة الجناح الإسلامي المقابل له بقيادة تقي الدين عمر، وقد نجحت خطته عبر ثغرة فتحها له القائد المسلم، ويعد أن اخترق صفوف المسلمين، أغلق القائد المسلم الثغرة، فانسحب ريموند من ساحة القتال، واتخذ طريقه إلى صور، ومنها إلى طرابلس.

القبض على صليب الصليبوت :

وظل فرسان الداوية والإستبارية يقاتلون، في الوقت الذي فقدوا فيه الأمل بأي انتصار؛ فأمر صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر أن يهجم مع خيالاته على الصليبيين الذين تضعفت صفوفهم، واختل نظام جيشهم، وأشعل المسلمون خلال ذلك النيران في الأعشاب الجافة والأشواك؛ فحملت الريح لهيها ودخانها باتجاه الصليبيين؛ فزادت من معاناتهم، واجتمع عليهم العطش، وحر الزمان، والنار والدخان والسيوف، وأدى ذلك إلى فرار من بقي منهم من ساحة المعركة إلى إحدى قرون حطين حيث شاهدوا تقي الدين عمر يقبض على صليب الصليبوت؛ فأسقط في أيديهم، وكانت تلك أكبر خسارة تكبلوها.

وتجمع بعض الفرسان حول خيمة الملك لشن هجوم مضاد، لكن صلاح الدين عاجلهم؛ فاندفع المسلمون الذين صعدوا إلى التلة التي نُصبت فيها الخيمة وأنهوا المعركة، وأسر كل من كان حول الملك وفيهم الملك نفسه وأخوه، ورينولد شاتيون صاحب الكرك، وجماعة من الداوية والإستبارية، وكثّر القتل والأسر فيهم.

صلاح الدين يقتل شاتيون بيده :

سيق الأسرى إلى خيمة صلاح الدين التي أقامها في مكان المعركة؛ فاستقبل الملك والأمرأة في لطف وبشاشة، وأجلس الأول إلى جانبه، وقد أهلكه العطش؛ فسقاه جلابًا مثلجًا، فشرب منه وأعطى ما تبقى إلى رينولد شاتيون الذي كان إلى جانبه، ووفقًا لتقاليد الضيافة العربية متى جرى بذل الطعام أو الشراب للأسير، فإن ذلك يعني الإبقاء على حياته؛ ولذا بادر صلاح الدين إلى القول: «إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمانًا».

ثم ألقت إلى رينولد شاتيون الذي لم يغفر له ما ارتكبه من أعمال السلب والنهب، وانتهاك الحرمات المنافية للدين، وأخذ يُذكِّره بجرائمه وخيانتته وغدره، ثم قام إليه وضرب عنقه بنفسه؛ فارتعد الملك وظنَّ أنه سوف يحل دوره، غير أن صلاح الدين سَكَن جاشه وأمنته، وقال له: "إن الملك لا يقتل ملكًا، وإنما هذا فإنه تجاوز الحد، فجرى ما جرى".

ثم أصدر أوامره بالألا يتعرض الأمراء للأذى، غير أنه لم يود أن يُبقي على حياة الأسرى من الفرسان والرهبان الداوية والإسبتارية، فأجهز عليهم، وسيق الأسرى إلى دمشق، فتهيات للأمراء أسباب الراحة، بينما تقرر بيع الأسرى الفقراء في سوق الرقيق.

الطريق إلى بيت المقدس :

وأضحى الموقف العسكري شديد الخطورة على مملكة بيت المقدس، وإمارتي طرابلس وأنطاكية؛ إذ لم يبق أمامه -بعد أن دمر أعداءه- إلا أن يفتح حصون الأرض المقدسة، وبخاصة أنه نتج عن خسارة الصليبيين، الذين ألقوا بكل ثقلهم في معركة حطين، أن وقع عدد كبير من أمرائهم وقوادهم وفرسانهم في الأسر، وعلى رأسهم الملك جاي لوزينان، حتى لم يبق لديهم من يصلح للقيادة.

يُضاف إلى ذلك أن الغرب الأوروبي لم يتبته إلى الخطر قبل عام (٥٨٣هـ = ١١٨٧م)؛ ولذا فإن احتمال مجيء حملة صليبية سوف يستغرق زمانًا؛ لذلك شرع صلاح الدين يفتح المدن والحصون الصليبية واحدة بعد أخرى، فتحتا سريعًا ومتواصلًا، مُركِّزًا ضرباته المباشرة على الموانع المهمة.

والواقع أن عملية الفتح لم تكن حربًا بالمعنى العسكري المفهوم للكلمة، بل أشبه بتزهة عسكرية؛ إذ كانت المقاومة ضعيفة، مما سهَّل للمسلمين الانتشار والتقدم، فكانت المدينة أو القلعة تسارع إلى الاستسلام لمجرد وصول المسلمين إليها، وذلك لعدم وجود قوة تدافع عنها، وإذا قاومت فإن مقاومتها تبدو ضئيلة. وقد قام صلاح الدين في هذا الوقت بفتح قلعة طبرية، وفتح عكا، ومدن الجليل، والمدن الساحلية.

والواقع أنه لم يتقضى شهر جمادى الآخرة حتى لم يبقَ للنصارى جنوبي طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة، ويضع قلاع معزولة، بالإضافة إلى بيت المقدس.

ويبدو أن صلاح الدين تخلى عن حذره هذه المرة أيضًا، حين منح الصليبيين -بعد أن فتح المدن والحصون المشار إليها- حرية البقاء فيها أو الخروج منها، فذهب معظمهم إلى صور؛ ذلك أنه سرعان ما أدرك أن أمر هذه المدينة غداً صعباً فتركها، وأثر الانصراف إلى غيرها؛ فقام بفتح عسقلان.

فتح بيت المقدس :

بعد أن فرغ صلاح الدين من فتح عسقلان والمدن المجاورة، تطلع إلى تحقيق هدفه الذي طالما جال بخاطره، وعمل له، وهو تحرير بيت المقدس تمهيداً لطرده الصليبيين من المنطقة؛ فأخذ يستعد لتنفيذ هذه الخطوة، وحتى يقطع الطريق على احتمال هجوم صليبي بحري على الساحل الشامي أثناء حصاره لبيت المقدس؛ أرسل إلى قائد أسطوله في مصر حسام الدين لؤلؤ أن يخرج بأسطوله من مصر لحماية الشواطئ، وقطع الطريق على مراكب الصليبيين والاستيلاء عليها.

وبذلك يكون قد ضمن حماية مؤخرة جيشه البري، وأقبل حلقة الحصار على المدينة المقدسة؛ ومن ثمّ دعا أهلها إلى إرسال وفد للتباحث في الشروط التي بمقتضاها تستسلم المدينة.

ويبدو أن سكان بيت المقدس قد أدركوا بعد تساقط المدن والمعاقل الداخلية والساحلية بيد صلاح الدين، أنهم أضحووا محاصرين فعلاً؛ فأرسلوا إليه وفداً اجتمع به أمام عسقلان، فعرض عليهم تسليم المدينة بالشروط نفسها التي استسلمت بها بقية المدن والمعاقل الصليبية، أي يؤمنهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم، وأن يسمح لمن يشاء بالخروج من المدينة سالماً، ولكن سكان بيت المقدس رفضوا أن يسلموا المدينة، عندئذ أقسم صلاح الدين أنه سوف يناها بحد السيف.

ثم كرر صلاح الدين عرضه على سكان بيت المقدس؛ وذلك رغبة منه في عدم استخدام العنف مع مدينة لها حرمتها وقديسياتها عند المسلمين والنصارى على السواء، لكنهم أصروا على موقفهم الرافض؛ عندئذ قرر صلاح الدين اقتحام المدينة عنوة.

واجتمع داخل المدينة ما بلغ ستين ألفاً بين فارس ورجال سوى النساء والأطفال، بل إن الصليبيين قاوموا الجيش الأيوبي الزاحف، واستطاعوا قتل أحد الأمراء وجماعة ممن كانوا

معهم.

وقد وصل صلاح الدين إلى المدينة في (١٥ من رجب عام ٥٨٣هـ = ٢٠ من سبتمبر عام ١١٨٧م) وعسكر أمام أسوارها الشمالية، والشمالية الغربية، وشرع في مهاجمتها لكنه جُبره باستحكامات هذا الجانب المتينة المشحونة بالمقاتلين، بالإضافة إلى أشعة الشمس التي كانت تواجه عيون قواته فحجبت عنهم الرؤية الضرورية للقتال حتى بعد الظهر؛ لذلك طاف حول المدينة مدة خمسة أيام يبحث عن مكان يصلح للجيش أن يعسكر فيه إلى أن عثر على موضع في الجانب الشمالي نحو العمود وكنيسة صهيون، حيث الأسوار أقل متانة، فانتقل إلى هذه الناحية في (٢٠ من رجب = ٢٥ من أيلول)، وحين حَلَّ الليل بدأ بنصب المجانيق.

وتراشق الطرفان بقذائف المجانيق، وقاتل أهل بيت المقدس بحمية وكذلك المسلمون، حيث كان كل فريق يرى ذلك دينًا عليه، وحتيًا واجبًا فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني.

ولما رأى الصليبيون شدة القتال، وشعروا بأنهم أشرفوا على الهلاك؛ عقدوا اجتماعًا للتشاور، فاتفقوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا وفدًا إلى صلاح الدين من أجل هذه الغاية، واشتروا احترام من في المدينة من الصليبيين، والسماح لمن يشاء بمغادرتها.

كانت هذه الشروط هي نفسها التي سبق لصلاح الدين أن عرضها عليهم من قبل، لكنه رفض قبولها الآن؛ لأنه أوشك أن يفتح المدينة عنوةً، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسي، وجزاء السيئة بمثلها.

وإزداد موقف الصليبيين في الداخل سوءًا، وراحوا ينظرون بقلق إلى المصير الذي ينتظرهم، ولم يسعهم إلا أن يحاولوا مرة أخرى إقناع صلاح الدين بالعمو عنهم، ولكن صلاح الدين سبق له أن أقسم بأنه سوف يفتح بيت المقدس بحد السيف، ولن يحله من قسمه سوى إذعان المدينة بدون قيد أو شرط.

في ذكرى الإسراء تم الفتح :

وتجاه هذا الإصرار، وبعد أن استشار مجلس حربه في الموقف، تقرر السماح للصليبيين بمغادرة المدينة مقابل عشرة دنائير عن الرجل يستوي فيها الغني والفقير، وخمسة دنائير عن المرأة، ودنارين عن الطفل، ومن يبقَ فيها يقع في الأسر، واشتراط أن يُدْفَع الفداء

المفروض في مدى أربعين يوماً، ومن لم يؤدّ فداءه خلال تلك المدة يصبح ملوكاً، لكن تبين أن في المدينة نحو عشرين ألف فقير ليس بحوزتهم المبلغ المقرر للفداء؛ فوافق صلاح الدين أن يدفع باليان مبلغاً إجماليّاً قدره ثلاثون ألف دينارٍ عن ثمانية عشر ألفاً منهم.

ودخل صلاح الدين المدينة يوم الجمعة (٢٧ من رجب = ٢ من تشرين الأول)، وشاءت الظروف أن يصادف ذلك اليوم في التاريخ الهجري، ذكرى ليلة الإسراء والمعراج.

سماحة القائد أم سماحة الإسلام :

ومن الأمور اللافتة ما حدث من طلب العادل من أخيه صلاح الدين إطلاق سراح ألف أسير من الفقراء على سبيل المكافأة عن خدماته له مظهرًا بذلك تسامحاً كبيراً، فوهبهم له؛ وإذا ابتهج البطريرك لذلك، لم يسعه إلا أن يطلب من صلاح الدين أن يبيح بعض الفقراء ليطلق سراحهم، فاستجاب لطلبه، ثم أعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ، وكل امرأة عجوز، كما ذهب بعيداً حين وعد نساء الصليبيين بأن يطلق سراح كل من في الأسر من أزواجهن، ومنح الأرامل واليتامى العطايا من خزائنه كل واحد بحسب حالته.

نتائج معركة حطين:

وعن نتائج معركة حطين يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور علي الصلابي:

١ - توصف معركة حطين، بأنها معركة فاصلة وحاسمة، لأننا نلاحظ أنها غيرت خريطة التوزيعات السياسية في المنطقة، ففي أعقابها اتجه ذلك السلطان المجاهد إلى فتح مدن الساحل الشامي، وتساقطت الواحدة تلو الأخرى باستثناء صور ذات المنعة والحصانة، وهكذا تم حل مشكلة الساحل الشامي الذي طرد منه المسلمون منذ أعوام طوال ولم يعد المسلمون أصحاب وجود بري حيس، وهكذا تساقطت مدن عكا، ويافا وصيدا وبيروت، وجبيل وعسقلان وغيرها، ومن بعد ذلك جاء فتح المسلمين لبيت المقدس عاصمة الكيان الصليبي.

٢ - كانت معركة حطين أعظم من مجرد كارثة عسكرية، حلت بالصليبيين، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على أكبر حركة استعمارية، شهدها العالم

في العصور الوسطى، كما شكّلت حدًا تراجع عنده المدُّ الصليبي باتجاه الشرق الأدنى الإسلامي وبداية النهاية للوجود الصليبي، وقد أنهت المعركة زهاء تسعة عقود من الاضمحلال والتدهور والتشردم في المنطقة الإسلامية في الشرق الأدنى؛ لتؤكد أهمية الوحدة بين أقطار هذه المنطقة الجغرافية في جنوب غرب آسيا وفي مصر في مواجهة كل الأخطار.

٣ - ارتفاع قدر صلاح الدين: من أسماء الله عز وجل الرفع فقد كانت معركة حطين من الأسباب التي رفع الله بها صلاح الدين وأصبح في صفوف كبار المجاهدين والقادة والحكام المسلمين كما أعاد للمسلمين الثقة بالنفس، والكرامة التي كانوا قد فقدوها بعد وفاة نور الدين محمود.

٤ - معركة حطين مفتاح بيت المقدس: كانت معركة حطين معركة تحرير فلسطين لأنها هي التي فتحت طريق النصر إلى بيت المقدس، وباقي فلسطين.

٥ - أهمية الوعي الجغرافي: أبرزت هذه المعركة أهمية الوعي الكامل بضرورة توظيف معطيات الموقع الجغرافي للشرق الإسلامي، واستثمار ميزاته، بحيث يكون عاملاً فاعلاً من عوامل القوة الذاتية، ومن دلالات المعركة بروز أهمية مصر كقاعدة بشرية مادية بالغة الأهمية في الربط بين العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، كما تجلّت أهمية أرض فلسطين التي تُعد بمثابة الجسر أو المعبر الذي يوصل بين بلاد الشام ومصر.

(٥)

معركة عين جالوت ... ووحدة المصير بين مصر والشام^(١)

الانتصار الساحق على المغول:

معركة عين جالوت وقعت في ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٣ سبتمبر ١٢٦٠ م، تعد من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ العالم الإسلامي. انتصر فيها المسلمون انتصاراً ساحقاً على المغول وكانت هذه هي المرة الأولى التي يهزم فيها المغول في معركة حاسمة منذ عهد جنكيز خان. أدت المعركة لانحسار نفوذ المغول في بلاد الشام وخروجهم منها نهائياً وإيقاف المد المغولي المكتسح الذي أسقط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ // ١٢٥٨ م. كما وأدت المعركة لتعزيز موقع دولة المماليك كأقوى دولة إسلامية في ذلك الوقت لمدة قرنين من الزمان أي إلى أن قامت الدولة العثمانية. وقعت المعركة في منطقة تسمى عين جالوت بين مدينة جنين والناصرية وبيسان، في شمال فلسطين.

يقول الكاتب والمؤرخ الإسلامي العراقي الدكتور عماد الدين خليل: في منتصف عام ٧٥٨ هـ (١٢٦٠ م) بعث هولاكو من الشام برسله يحملون رسالته المشهورة إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز.. كان هولاكو في قمة انتصاراته.. وكان المغول قد اكتسحوا القوى الإسلامية واحدة بعد الأخرى، وهدموا متاريسها وجدرائها، وسوا الطريق أمام جحافلهم المتقدمة غرباً.. ما من قيادة إسلامية، من أواسط آسيا وحتى أطراف سيناء، إلا وأذعنت لهم طوعاً أو كرهاً.. وكان السيف الوثني المغولي يعلو على السيوف، وكان الرأس الذي لا ينحني له يطاح به في التو واللحظة.. وحتى أولئك الذين اختاروا السلامة ولووارعوسهم عجزاً عن المجابهة وهروباً من الموت.. وقعوا في مصيدة الموت التي كان المغول يتفنونون في نصبها وفي تعذيب خصومهم وهم يتقبلون في شباكها. والذي حدث في بغداد معروف.. ومعروف أيضاً المصير المفجع الذي آلت إليه أكبر قوتين

(١) الكاتب والمؤرخ الإسلامي العراقي الدكتور عماد الدين خليل، راجع: جريدة الوسط الكويتية -

معارك إسلامية خالدة - الحلقة "٢٦" - عرض / ربيع سكر - ٨ أغسطس ٢٠١٣

إسلاميتين في المشرق: الخوارزميون في بلاد فارس وما وراء النهر، والعباسيون في العراق..

سنوات عديدة والمطاردات الرهيبة لا تقتر بين المغول وبين السلطان الخوارزمي الأخير جلال الدين منكبرتي.. وصراع الحياة والموت يعرض مشاهد الدامية في مساحات واسعة من الأرض، شهدت جهات ما وراء النهر وشمال الهند وبحر قزوين وشمال العراق والجزيرة الفراتية والأناضول بعضًا منها..

وعبثًا حاول السلطان أن يتصل بالأمرء المحليين من إخوانه المسلمين في سبيل تشكيل جبهة إسلامية موحدة لمقاومة السيل الزاحف، لأنه هو - عبر سنوات حكمه الطويلة قد مارس خطيئة التمزيق والتفتيت وإشعال نار الخصومة والعداء بين القيادات الإسلامية بعضها ضد بعض.. وأخيرًا استسلم لليأس وتحلف عنه كثير من أنصاره، ووجد نفسه في قلة من أصحابه وحيدًا غريبًا، مطارَدًا في جبال ديار بكر.. ويذكر معاصروه كيف أن البكاء كان يغلب عليه في الليل والنهار، وكيف أنه هرب إلى الخمر يخبئ وراء غيوبتها من شبح النهاية القريب.. وما لبث أحد سكان المنطقة أن طعنه بسكين وقضى عليه.

وأما العباسيون فأمرهم معروف.. وما شهدته بغداد حاضرة المسلمين الكبرى، غدا مثلًا يضرب على مداولة الأيام بين الناس. ولكن ما شأن الإمارات المحلية؟ لم يكن مصيرها -بطبيعة الحال- بأحسن من مصير دول الإسلام الكبرى.. بعضها هادن وناقق ودعا إلى السلم وهو في مواقع الضعف والهوان، فلم ينجح ذلك من سيوف المغول، وبعضها الآخر وقف الوقفة التي تقتضيها كرامة المسلم ولقي من صنوف الأذى ما يشير إلى بشاعة الطرائق التي اعتمدها المغول لإلقاء الرعب في قلوب الخصوم..

قُتِلَ الكاملُ الأيوبي أميرُ ميافارقين في ديار بكر شرقتلة، إذ كان المغول يقطعون لحمه قطعًا ويدفعون بها إلى فمه حتى مات، ثم قطعوا رأسه وحملوه على رمح وطافوا به في بلاد الشام. وكان يتقدم الموكب مغنون وطبالون، وأخيرًا عُلِقَ في شبكة بسور أحد أبواب دمشق، ويقال إنه بقي هناك حتى تحرير المدينة من قبضة الغزاة.

ووضع الملك الصالح أمير الموصل في دهن ولباد وألقي في الشمس حتى تحول الدهن إلى ديدان بعد أسبوع، فشرعت الديدان تأكل جسده حتى مات على تلك الصورة البشعة

بعد شهر.. أما ابنته الذي كان طفلاً في الثالثة من عمره فشقوه نصفين على ساحل نهر دجلة على مرأى من الناس.. وغير هؤلاء كثيرون لقوا مصارع لا تقل شناعة وبؤساً.. وما جرى في مدن الجزيرة الفراتية وشمالى الشام يعد واحداً مما شهدته الكثير من المدن والإمارات على مدى المشرق الإسلامى كله..

فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام؟

والمؤرخ ابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠ هـ وهو يستعرض وقائع عام ٦١٧ هـ ويسطر بدايات خروج المغول على بلاد الإسلام، يتحدث عن الهول الذي ألم بمعالم الإسلام، وقد كان في مطالعه يومها.. فماذا لو طال العمر بالمؤرخ المذكور وشهد أحداث العقود التالية.. وما أسياها؟

يقول الرجل: «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، وبالييتي مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً. إلا أني حدثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً. فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقرت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن، لم يتلوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر بيني إسرائيل من القتل، وتخريب البيت المقدس بالنسبة إلى ما حارب هؤلاء الملاحين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس.. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قُتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفتنى الدنيا.. إنهم لم يقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

الانكسار من الداخل:

كان الهجوم المغولي السريع الكاسح قد منح هؤلاء المغيرين سلاحاً نفسياً خطيراً:

الرعب الذي كان ينقض على خصومهم من الداخل فيهمزهم قبل أن تلتحم السيوف أمام عيونهم.. إنه السيف الأكثر حدة والذي كان يذبح فيه القدرة على الحركة.. لقد كان المسلمون يومها يعانون من شلل تام أو نصفي أقداهم الأرجل التي يسرون عليها والأيدي التي يضربون بها.. وهذه الوقائع التي يرويها ابن الأثير تكاد تكون تجسيداً «كاريكاتورياً» مضحكاً محزناً للأمر الذي آلهه الكثيرون من أبناء عالم الإسلام.

يقول الرجل: «لقد حُكي لي عن حكايات يكاد سامعها يكذب بها من الخوف الذي ألقى الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس منهم، حتى قيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد أن يمد يده إلى ذلك الفارس. ولقد بلغني أن إنساناً منهم أخذ رجلاً، ولم يكن مع التتري ما يقتله به، فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع رأسه على الأرض ومضى التتري فأحضر سيفاً وقتله به! وحكى لي رجل قال: كنت أنا ومعى سبعة عشر رجلاً في طريق، فجاءنا فارس من التتر وقال لنا حتى يكتف بعضنا بعضاً، فشرع أصحابي يفعلون ما أمرهم، فقلت لهم: هذا واحد فلم لا نقتله ونهرب؟ فقالوا: نخاف أمرهم. فقلت لهم: هذا يريد قتلكم الساعة فنحن نقتله فلعن الله مخلصنا، فوالله ما جسر أحد أن يفعل، فأخذت سكيناً وقتلته، وهربنا فنجونا!!»

التحدي:

في هذه الظروف السياسية والنفسية، ومن خلال وهج السيوف التي تقطر دماً وأصداء المعارك التي أثار نفعها سيلاً لا أول له ولا آخر من خيول الغزاة بعث هو لأكوبرسالتة تلك إلى سلطان مصر المملوكي: سيف الدين قطز.. وكان الطاغية يعرف جيداً خلفية الرعب والانزمام التي رسمتها العقود الأخيرة على مدى خارطة عالم الإسلام وفي أعماق نفوس أبنائه، فعرف كيف يتقني كلماتها.. قال: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً، الخان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها ومن الأعمال، إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه، فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ.. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم

العباد، فعليكنم بالهرب وعلينا الطلب. فأى أرض تؤويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلکم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر.. فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون مناجأها ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً، وتدهون منا بأعظم داهية، وتصيح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم.

فمن اختار الجهاد يصحبني!

كانت الرسالة بمثابة التحدي النهائي لآخر قيادة إسلامية، وعلى ضوء الموقف الذي ستقرر هذه القيادة اتخاذه سيتوقف مصير عالم الإسلام وحضارته التي صنعها كدح القرون الطوال.

كل المؤشرات كانت تقود إلى الاستسلام للتحدي والإذعان لضروراته..

ولكن الإيمان له منطق آخر.. إنه لا يمنح القدرة على الحركة في ظروف الشلل التام فحسب، ولكنه يبب بصيرة نافذة تحترق حجب العمى والظلام لكي تطل على الأفق الذي يشع ضياء..

وبالحركة القديرة والرؤية الصائبة تجابه القيادات الفذة تحديات التاريخ ومحنه وويلاته فتخرج منها ظافرة وتحقق بالاستجابة ففزة نوعية في مجرى الفعل والتحقيق.

قرأ سيف الدين قطز الرسالة واستدعى أمراءه ليعرض الأمر عليهم.. وجرى هذا الحوار.

قطز: ماذا ترتئون؟

ناصر الدين قيمي: إن هولاء، فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان، فإن شهرته وهيبته في غنى عن الشرح والبيان، وإن البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته

الآن، فلو ذهبنا إليه نطلب الأمان فليس في ذلك عيب وعار! ولكن تناول السم بخداع النفس واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل! إنه ليس الإنسان الذي يطمأن إليه، فهو لا يتورع عن احتزاز الرعوس وهو لا يفي بعهده وميثاقه، فإنه قتل فجأة الخليفة وعدداً من الأمراء بعد أن أعطاهم العهد والميثاق، فإذا ما سرنا إليه فسيكون مصيرنا هذا السبيل!

قطز: والحالة هذه، فإن كافة بلاد ديار بكر وريجة والشام ممتلئة بالمناحات والفجائع، وأضحت البلاد من بغداد حتى الروم خراباً ياباً، وقضي- على جميع من فيها من حرث ونسل.. فلو أننا تقدمنا لقتالهم وقمنا بمقاومتهم فسوف تخرب مصر خراباً تاماً كغيرها من البلاد، وينبغي أن نختار مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة: الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن. أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر، ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفرّاً إلا المغرب، وبيننا وبينه مسافات بعيدة..

قيصري: وليس هناك مصلحة أيضاً في مصالحتهم إذ إنه لا يوثق بعهودهم!

عدد من الأمراء: ليس لنا طاقة ولا قدرة على مقاومتهم، فمر بما يقتضيه رأيك..

قطز: إن الرأي عندي هو أن نتوجه جميعاً إلى القتال، فإذا ظفرنا فهو المراد، وإلا فلن نكون ملومين أمام الخلق.

الظاهر بيبرس: أرى أن نقتل الرسل ونقصد كتبنا - قائد المغول - متضامين، فإن انتصرنا أو هُزمتنا فسنكون في كلتا الحالتين معذورين.

أيد الأمراء كافة هذا الرأي.. وكان على قطز أن يتخذ قراره.. وقد اتخذ فعلاً.. قتل الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة أياماً.. ورفع رأسه متحدياً بمواجهة الطاغية، وأصدر أوامراً بالتجهز للقتال «جهاداً في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ».

وإذ رأى تردداً وجبناً ونكوصاً من عدد من الأمراء ألقى كلمته المؤثرة: «يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين».

وما كان للأمرء جميعًا، إزاء قيادة مؤمنة كهذه، إلا أن يخلعوا رداء العجز والوهن ومحنة الدنيا.. ويقفوا متحدّين بمواجهة الفتنة التي إن لم تدفع بالدم فإنها لن تكفي لضرب الذين ظلموا منهم خاصة!

اليوم الفصل:

انطلقت القوات الإسلامية بقيادة سيف الدين قطز واجتازت سيناء باتجاه غزة سالكة الطريق المحاذي للبحر، وتولى الظاهر بيبرس قيادة المقدمة. ولم يكن في غزة سوى قوة صغيرة من المغول بقيادة بايدر الذي أرسل إلى القائد المغولي كتبغا الذي أنابه هو لآكو لإتمام الغزو غربًا، يخطره بحركة الجيش الإسلامي، غير أن المسلمين اكتسحوا عساكره قبل أن تصل إليه النجدة.

كان كتبغا في بعلبك، فتجهز على الفور للمسير إلى وادي نهر الأردن بعد أن يتجاوز بحر الجليل، غير أن منعه اشتعال ثورة المسلمين في دمشق ضد السلطة المغولية وأنصارها من النصاري المحليين حيث حطمت دورهم وكنائسهم، واشتدت الحاجة إلى العساكر المغولية لإعادة الأمن إلى نصابه. وفي تلك الأثناء كان قطز يواصل السير على الساحل الفلسطيني ثم انعطف إلى الداخل ومضى شمالاً لتهديد مواصلات كتبغا إذا حدث وتقدم إلى فلسطين.

عبر كتبغا نهر الأردن وتوجه صوب الجليل الشرقي، فبادر قطز على الفور بالانعطاف بقواته باتجاه الجنوب الشرقي مجتازًا الناصرة حيث وصل في الرابع عشر من رمضان (المصادف الثاني من سبتمبر/ أيلول عام ١٢٦٠م) إلى عين جالوت. وفي صبيحة اليوم التالي قدم الجيش المغولي تعززه كتائب كرجية وأرمنية، دون أن يعلم أن جيش المماليك أضحى قريبًا منه. وكان قطز يعرف جيدًا تفوق جيشه في العدد على العدو ولذا أخفى قواته الرئيسية في التلال القريبة ولم يعرض للعدو إلا المقدمة التي قادها بيبرس. وما لبث كتبغا أن وقع في الفخ إذ حمل بكل رجاله على القوات الإسلامية التي شهدها أمامه، فأسرع بيبرس في تفهقه إلى التلال بعد أن اشتدت مطاردة كتبغا له، فلم يلبث الجيش المغولي بأسره أن جرى تطويقه فجأة، وجرت بين الطرفين معركة طاحنة، واضطرت قوات المماليك بعض الوقت، فدخل قطز المعركة لجمعهم، ولم تنقضي سوى بضع ساعات

حتى بدأ تفوق المسلمين في الميدان، وسحقت زهرة القوات المغولية ووقع قائدهم نفسه أسيراً. وبأسره انتهت المعركة، إذ جرى حمله مقيلاً بالأغلال إلى السلطان حيث احتز رأسه!

توجه السلطان قطز إلى دمشق بعد أيام قلائل من المعركة حيث استقبل استقبال الأبطال وهرب نواب المغول منها بعد أكثر من سبعة أشهر من خضوعها لسيطرتهم، وقام قائده الظاهر بيبرس بملاحقة فلول العدو شمالاً وتطهير البلاد منهم، حيث قتل وأسر عددًا كبيرًا، وتمكن خلال شهر واحد من دخول حلب، المعقل الشمالي، وتخليصها من قبضة الغزاة. وهكذا تم تحرير بلاد الشام وفلسطين من أقصاها إلى أقصاها. ومع أن هولاءكو أرسل العساكر لاسترداد حلب فإنهم اضطروا للانسحاب بعد أربعين يومًا أجروا أثناءها المذابح في عدد كبير من المسلمين انتقامًا لمصرع كتبغا، غير أن ذلك كان كل ما استطاع هولاءكو أن يفعله للانتقام لقائده الشهير.